

الشاعر العربي والمدينة

أ.عطا الله الناصر

المركز الجامعي تيبازة

ملخص :

إن الشاعر العربي قد تناول في قصائده العديد من الموضوعات التي تتعلق بجوانب حياته المختلفة ،غير أنه هناك العديد من المواضيع التي كان لها من الاهتمام إلى حد التميز و البروز كظاهرة موضوعاتية طغت على الشعر العربي وهي علاقته بمكان نشأته وولادته ،كما أن الإنسان يرتبط ببيئته ارتباطا وثيقا، لأنه مكمل لبيئته وهي مكمل له فيما يتعلق بنشأته وتطوره، ومن هنا كان للإقليم الذي يعيش فيه الإنسان الأثر الكبير في أخلاقه وتكوينه النفسي واستعداده العقلي والفكري وعلاقاته الاجتماعية والتواصل مع الآخرين.

الكلمات المفتاحية :

البيئة والشاعر ، الشاعر العربي والمدينة ، الشعر العربي والمدينة ، المدينة والمتمدن .

Résumé

Où poète arabe a abordé dans ses poèmes de nombreux sujets qui ont trait à des aspects de sa vie différent, mais il ya beaucoup de sujets qui ont eu l'attention sur la mesure de l'excellence et le phénomène de la prééminence thématique éclipsé la poésie arabe qui est sa relation avec l'éducation importante et sa naissance, et les droits associés à son environnement de près en étroite collaboration, ce est complémentaire à son environnement et est complémentaire par rapport à Bensoth Ttorh.omen et ici a été la région dans laquelle l'homme vit un impact significatif sur la morale et la préparation mentale et intellectuelle configuré psychologique et des relations sociales et de communiquer avec les autres.

Mots clés:

Environnement et poète, le poète et la ville arabe, la poésie arabe et de la ville, la ville et civilisé.

Abstract :

Where Arab poet has addressed in his poems many topics that relate to aspects of his life different, but there are many topics that have had attention to the extent of excellence and prominence phenomenon thematic overshadowed the Arabic poetry which is its relationship to important upbringing and his birth, and the rights associated with its environment closely closely; that is complementary to its environment and is complementary with respect to Bensoth Ttorh.omen and here was the region in which man lives a significant impact on morals and psychological configured mental and intellectual readiness and social relationships and communicate with others.

Key words:

Environment and poet, the poet and the Arab city, Arabic poetry and the city, the city and civilized.

تمهيد:

لقد كان تمسك الإنسان ببيئته ورفضه البعد عنها أو استبدالها بمكان آخر محل دراية ودراسة الكثيرين ممن اهتموا بالمدينة والمتمدن خصوصا الشعراء العرب وإن كان ذلك فلظروف القاهرة. "إن مكوث الإنسان في بيئته منذ الولادة و النشأة بين أهله وعشيرته ولتعوده على ظروف معينة وعادات وتقاليد خاصة...يجد من الصعوبة بمكان

تغييرها أو تقبل ما يختلف عنها، يضاف إلى ذلك تلك العلاقات الاجتماعية التي اتسمت بسمات معينة من ذلك المحيط الذي نشأ فيه الإنسان.¹

إن هذه العوامل وغيرها كانت الحافز الأول في أن يقوم ذلك الترابط الوثيق بين الإنسان وبيئته وأن تكون صلته بها وبما تحمله من عادات وتقاليد أوثق وأشد تثبيتاً في وجدانه وكيانه من أي أمر آخر.

والتاريخ الإسلامي شاهد على هذا الأمر من خلال مدى تعلق المصطفى صلى الله عليه و سلم بمكة؛ حيث قال فيها: "والله إنك لخير أرض الله إلى الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولو أي أخرجت منك ما خرجت."²

والأكثر من ذلك قوله عز وجل: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم و أشد تنبيهاً﴾.³

فكل واحد منا أحب مدينة أو أكثر؛ سواء كانت مسقط رأسه أو لم تكن أو عاشها مؤقتاً للتعليم أو العمل أو زار أهلاً له فيها أو سمع عنها. غير أنه يبقى مسقط الرأس أجمل مكان في الدنيا عند معظم الناس، وقد صدق أبو تمام لما قال:

نقل فؤادك حيث شئت من المهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم من منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ومن هذا المنطلق كان الشعراء أكثر و أشد تعلقاً بالبيئة التي عاشوا فيها وبالتالي خلدوها في أشعارهم، وتفاعلوا معها بكل عواطفهم، كيف وقد جبل الإنسان على حب مسقط رأسه ومرتع الصبا والطفولة و ملتقى الأهل والأحباب.

فقد جسّد الشاعر العربي ومنذ القدم وبخاصة الشاعر الجاهلي في قصائده كل هذا التعلق بالمكان والتفاعل معه وجدانياً. إذ أن شبه الجزيرة العربية تتميز بمميزات خاصة منها تلك الصحاري الشاسعة والأراضي الجرداء ذات المطر القليل و الينابيع القليلة؛ مما انعكس ذلك على حياة الناس في تلك الفترة. فصارت تفرض عليهم الترحال و التنقل تبعاً لما يلائم حياتهم من توافر الماء والكأ. "الرحيل خاصة في المنطقة العربية هجرات القبائل القديمة و التي لم تتوقف عبر تاريخها الطويل... وكانت في هجراتها و حركاتها تبحث عن العشب و الماء أو تبحث عن المزيد من الحرية لأن أوطانها القديمة لم تعد قادرة على توفير معيشة لائقة لها أو إمكانية البقاء و الاستمرار ضمن شروط إنسانية معقولة"⁴.

غير أن عملية انتقال البدو من مكان إلى آخر تترك في نفوسهم أثراً بالغاً و عميقاً من باب الذكريات. مما يكون هذا الانتقال سبباً في الألم و الحزن الشديد أسفاً على ما فات من أيام و ذكريات خلدت في هذه البقعة من الأرض.

ولذلك كان من الطبيعي أن نجد شعراء العصر الجاهلي يعيشون حياة البادية. ومن هذا المنطلق كان تعلق الشعراء بأوطانهم والبيئة التي عاشوا فيها باعتبارها مهد الطفولة ومكاناً لصور الحياة الجميلة التي عاشوها فوقها بين الأهل و الأقارب، فكان يحزن لمفارقتها بالعودة إليها و يحزن لابتعاده عنها. "فالبدو قوم رحل دائماً التنقل لا يقر لهم قرار في مكان معين إلا أنهم يحصرون تنقلهم في محيط محدود لا يخرجون عن نطاقه إلا في حالات قليلة نادرة. فكان هذا

الحيط هو وطنهم الذي يكون له الشعور (...). فإننا نراه يتمسك بكل بقعة حل فيها، و يحن لكل ديار أقام بين جنباتها ويكي ويستبكي حينما يمر على أطلال دياره و ديار أهله على أيامه السالفة"⁵.

وفي مقابل ذلك فقد عرفوا حياة الحواضر التي كانت منتشرة في المنطقة، فكان لها هي الأثر البالغ في نفوس الشعراء و بالتالي في أشعارهم. "ارتبط الشعراء العرب القدامى بالمكان ومن هنا انتشرت لديهم ظاهرة الوقوف على الطلل و أشعار الحنين إلى الدار والأهل. مثلما عرفوا المدن وألفوها وعانوا حياتها خيرا و شرا فكتبوا فيها و عنها مدحا و هجاء وصوروا حالات الغربة والبعد عنها أو الشوق و التطلع إليها (...). فالحواضر ترادف الأوطان فهي جامعة لكل معاني الحياة نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وهي العمق التاريخي والامتداد الحضاري لذات الشاعر"⁶

فكان الشاعر لا يكتب قصيدة إلا وقد استهلها بمقدمة يقف فيها على الأطلال و البيئة التي عاش فيها، على الرغم من أن هذه الأطلال كانت مجرد مخلفات لمنازل خالية وبقايا الحجارة.

"كان الشاعر العربي القديم ابن بيته البار، أقام فيها فأحبها و أذاها في وجدانه. وانتقل عنها فلم ينسها، ودأب على ذكرها و الوقوف والاستيقاف عليها كلما مر بها. واتخذ منها ملهما لأفكاره، و منبعا لصوره وموضوعا لوصفه. وتغنى بها — على قسوتها عليه أحيانا — فردد أسماء البقاع التي شاهدت فترات حياته"⁷.

وعليه فقد اتسم الشعر الجاهلي بطابع المقدمة الطللية التي كانت ملازمة لكل القصائد الجاهلية وهذا ما يؤكد مدى تعلق الشاعر الجاهلي بوطنه وبيئته.

"أما الأطلال فهي حجارة صماء و نؤي و أنافي سفح و أوتاد لا تعني شيئا بذاتها ولكنها تعني كل شيء بالنسبة للشاعر الجاهلي؛ تعني وجوده، و تعني ذاته، و تعني ماضيه، وملاعب صباه، و تعني وطنه."⁸

فالأطلال كانت تمثل للشاعر الجاهلي كل ما يتعلق بحياته من الطفولة إلى مراحل متقدمة من عمره. ومن خلال علاقاته مع أهله و أقرب الناس إليه مما تولد لديه ذلك الارتباط ببيئة المنشأ "إن وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال لم يكن محض تعلق بتلك النؤى والأوتاد والأثافي و الدمن والآثار قدر ما هو تعبير عن توترات كانت تقوم في نفسه بين الماضي والحاضر، بين التآلف الجمعي و التفرق بين الاستقرار والرحيل."⁹

ولعل خير من يمثل ذلك هو امرؤ القيس في معلقته التي يستهلها بالوقوف على الأطلال حيث يقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضع فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب و شمال

ويذهب عبيد بن الأبرص مذهب سابقه في الوقوف على الأطلال إذ يقول:

أمن مترل عاف و من رسم أطلال بكيت وهل يكي من الشوق أمثالي

ديارهم إذا هم جميع فأصبحت بسابس إلا الوحش في البلد الخالي.¹⁰

وهذا كثير عزة هو الآخر يقف على الأطلال فيقول:

أمن آل قيلة بالدخول رسوم ولحومل طلل يلوح قديم

لعبت الرياح برسمه فأجد جون عواكف في الرماد جثوم¹¹

أي أنها أصبحت خالية بعد أن كانت عامرة. مما جعل الشاعر يحن إلى تلك الأيام الخوالي التي كانت عامرة والحياة الجميلة التي رسموها فوقها. غير أن طبيعة المنطقة و البيئة أرغمته على الرحيل و مغادرة الديار. ويقول النابغة الذبياني من خلال الوقوف على أطلال الأحبة وتحيتها وتنسم الذكريات عن طريق آثارها من ديار أم أوفى بعد أن أتى على عهده بما عشرون سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة يقول:

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا عم صباحا أيها الربع و أسلم¹²

ويقول كذلك:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت و طال عليها سالف الدهر
وقفت فيها أصيلا لا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد
أضحت قفاراً و أهلها احتملوا أخشى عليها الذي أخشى على لبد¹³

وعموما فإن الشاعر الجاهلي قد تعلق بالبيئة التي احتضنته منذ الطفولة وخلدها في أشعاره، والأكثر من ذلك أنه لم ينسها حتى وهي أطلال و حجارة صماء.

وعبر مراحل تطور الأدب العربي في مختلف العصور نجد أن العديد من الشعراء عموما قد كتبوا قصائد في هذا الإطار. وعليه نجد معظم الشعراء يعتمد المسلك الوصفي المباشر و يتوسل بإبداء عواطف الحب والإعجاب أو الكره أو التذمر تجاهها .

فقد اقترن شعرنا العربي بالمدينة حيث غدت ملفوظا شعريا بامتياز يضفي عليه الشاعر زحما خاصا و يعيد صياغته و بناءه من جديد في رؤيته الشعرية، لذلك لم تعد المدينة في الشعر العربي موقعا جغرافيا وطبوغرافيا بقدر ما أضحت إحياء للخير وللجمال أو إحياء للبؤس والاعتراب ، كما قد تصير رمزا للألم والضياع . فغابت أبعادها الهندسية المادية وتحولت إلى طاقة استعارية رمزية تمد الشاعر بالإلهام بل تطهره من الواقع وإحباطاته، وتتجاوز المستوى المعيشي اليومي إلى الدلالة التعددية في التأويلات الممكنة لها. وهي بذلك تهب الشاعر إمكانية التفاعل مع الناس و المكان لذلك قد تصبح عند أحدهم امرأة فاتنة يتغزل بها أو تصبح غولا يهدد حياته و يمارس عليه كل أنواع القسوة¹⁴.

وهنا لسنا بصدد الحديث عن المدينة في بعدها المادي ولكن الذي يهمنا هو كيف تعامل الشاعر العربي مع المدينة وكيف انعكس ذلك في شعره. ولنا في هذا الأمر جانب.

ينبغي أن نشير في البداية إلى أن أغلب التعاريف التي تتعلق بمفهوم المدينة في مجملها تصب في إطار واحد . فكلها تنظر إلى المدينة من منظور حضاري و مادي إلى جانب عامل التجمعات السكانية. وهذا ما يجمله التعريف الآتي: "بأنها تجمعات سكانية كبيرة وغير متجانسة تعيش على قطعة أرض محدودة نسبيا وتنتشر منها تأثيرات الحياة الحضرية المدنية، ويعمل أهلها في الصناعة أو التجارة أو كليهما معا كما تمتاز بال تخصص وتعدد الوظائف السياسية و الاجتماعية".¹⁵

فالمدينة في أبسط تعريفاتها هي مقر لجموعة بشرية ما تربط بين عناصرها علاقات شتى منها العائلية والاجتماعية و الاقتصادية و الدينية، ويعيشون في إقليم جغرافي يتميز بطغيان الجانب المادي من سكنات و بني تحتيّة و مرافق

خدماتية، بحيث تنوع بتنوع طبيعة نشاطها، إلى جانب المنشآت الكبرى؛ من جسور و مصانع ومؤسسات تجارية كبيرة. ولتحديد طبيعة المدينة و مفهومها كان لنا أن قارناها بما يعرف بالريف أو القرية وهنا كان الفرق واضحا جدا. فالمدينة أكثر تطورا من القرية من منظور مادي وحضاري ومن ناحية الخدمات التي تقدمها المدينة للناس من تسهيلات الحياة والاستمرار والبقاء "المدينة تمتاز بصفة الجاذبية، إن المنطقة التي ولد فيها الإنسان تكون محل زهو لديه غير أن نشأة المدن وما يتوافر فيها من مظاهر حضرية جعلت الإنسان لا سيما الذي ولد في الريف قبل الذي ولد في المدينة يفضل الحياة في المدينة على الحياة في القرية التي ولد فيها لعدم توافر الوسائل و الخدمات الحضرية في القرية".¹⁶

ولعل ما يؤكد ذلك هو انتشار ظاهرة التروح الريفي نحو المدن، وهنا نؤكد على أن السبب الرئيسي الذي دفع بأهل القرى و ساكنيها إلى الهجرة نحو المدن هو عدم قدرة القرية على توفير شروط الحياة الضرورية للإنسان من أجل العيش الكريم. غير أننا لا ننكر أنه هناك من يفضل الريف عن المدينة .

وعموما فإن المدينة لها من الخصائص ما يميزها عن الريف، من خلال الجانب المادي والحضاري والثقافي و السكاني ومظاهر الحياة المختلفة.

غير أن المدينة من المنظور الوجداني فهي تختلف عن المفهوم المادي و الحضاري. فهي تأخذ وبصفة خاصة مفهوم المكان الذي شهد مولد الفرد و طفولته و حياته مما يجعله أكثر تعلقا بها وبغض النظر عن الجوانب المادية التي تميز بقعة عن أخرى. إذ أنه ومنذ القدم لم يكن مفهوم المدينة قد أخذ أبعاده الإجرائية إلا مع بروز التطور الحضاري وظهور فن العمارة والتشييد. إذ أن الإنسان ومنذ القدم كانت البادية هي مدينته وهي وطنه. وكانت بعد ذلك بعض التجمعات السكنية التي أخذت تأخذ طابع القرية فهي مدينة هؤلاء الناس من منطلق العلاقات التي كانت تربط بين هؤلاء الناس والتي يميزها البعد الاجتماعي. لتظهر بعد ذلك المواطن الحضارية و كبريات المدن بحيث أصبحت تسمى الحاضرة على عكس البادية فهي أكثر تطورا ومادية منها. ومع مرور الزمن و بتغير المكان بدأت تظهر المدن والعواصم الكبرى و بدأت التجمعات السكنية تكبر و بشكل سريع.

أما المدينة من المنظور الذي نحن بصدد معالجته في هذا الموضوع فهي تنوع تتخذ أبعادا مختلفة بحسب تشكل هذا المفهوم من خلال ما جاد به الشعراء وعبر مراحل التاريخ الأدبية انطلاقا من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وكيف تشكل هذا المفهوم في ذات الشعراء. و الغالب أنها مرتبطة وبشكل ظاهر بالجانب الوجداني للشعراء من قبيل تخليد هذا المفهوم في قصائدهم وتعلقهم به. و الأكثر من ذلك أن العديد من الشعراء قد شيدوا مدنا خاصة بهم و أطلقوا عليها أسماء خاصة بهم. بحيث أنهم هم الذين يشكلون مظاهرها و هم من يختارون سكانها و بنياتها التحتية، إلى كل مظاهر الحياة التي يرسمونها بكل دقة تتماشى و أهواءهم .

ولكن ما يمكن أن نقوله أن المدينة وعبر التاريخ و المكان تعتبر جزءا من وجدان الفرد. بغض النظر عن عرقه و جنسه وانتمائه. إذ لم تكن مقصورة على أناس دون آخرين فهي تأخذ بعدا إنسانيا.

I- المدينة في الشعر العربي القديم:

ينبغي أن أشير في البداية إلى أن المدينة في العصر الجاهلي لم يكن لها قرار من قبيل التكوين الذي تعرفه طبيعة المدينة من حيث التشكل و الظهور. فكل ما جسده الشاعر الجاهلي في شعره كان تعلقا بالمكان و البيئة التي عاش فيها . ولم يعيش الشاعر الجاهلي في المدن ولم يعرفها بل كان يعيش في البوادي. فالمدن بدأت تظهر فيما بعد و بالخصوص في الفترة العباسية وما بعدها من مراحل. فكان أن بدأت تظهر المدن الحضارية و بالتالي استقرار العديد من الشعراء العرب في المدن . فكان أن كتبوا عن المدينة وما يتعلق بها بكل مظاهر الحياة .

وعموما فالمدينة من منظور مادي وحضاري لم تكن معروفة لدى الشاعر الجاهلي ولا هو عاش فيها. فكل ما كتبه كان من منظور تعلقه بالمكان. غير أنه ومع بروز وظهور المدن بدأت تظهر لدى الشعراء العرب قصائد تتناول المدينة كموضوع.

1 – الشاعر العباسي والمدينة:

الشاعر العباسي هو الآخر كان للمدينة أن أخذت نصيباً من شعره؛ إذ أنه هو الآخر تعلق بالمكان والبيئة التي عاش فيها خاصة، وبكل ما يحيط به من أماكن جميلة، حيث نقل لنا صوراً رائعة عن جمال البيئة العباسية وما يميزها من مدن تتخللها المباني والقصور الرائعة إلى جانب الحداثق ومظاهر الحضارة. فالشاعر العباسي لم يكتف بنقل مظاهر الحضارة في البيئة العباسية ومدنها بل كان أن تفاعل معها بكل جوانحها؛ بحيث نقل كل ما هو مادي بواسطة مشاعره وأحاسيسه.

فهذا ابن المعتز يصف لنا مظاهر الحياة الجديدة التي شهدتها البيئة العباسية من قصور وبساتين وضياع ؛ وهذا من خلال وصفه لأبنية الخليفة المعتضد اسمها الثريا يقول:

حللت الثريا خير دار و منزل
فليس له فيما بنى الناس مثبه
جنان و أشجار تلاقت غصونهن
ترى الطير في أغصانهن هواتفها
وبنيان قصر قد علت شرفاته
فلا زال معمورا و بورك من قصر
ولا بناء الجن في سالف الدهر
فأورقت بالأثمار و الورق الخضر
تتنقل من وكرهن إلى وكر
لترضع أولاد الرياحين و الزهر

فقد كانت البيئة العباسية قمة في الجمال وفي مناحي الحضارة المختلفة .

وهذا البحري يصف البركة التي شاهدها في قصر الخليفة يقول:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها
و الآنسات إذ لاحت مغايبها
تنصب فيها وفود الماء معجلة
كالخيل خارجة من جبل مجريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها¹⁸

وهذا أبو نواس يقف على مظاهر الحياة العباسية متهجماً على كل ما هو عاف من الأطلال القديمة و الرسوم يقول:

أحب إلى من أخذ المطايا . بمومة يتيه بها الطليم

ومن نعت الديار وصف ربع تلوح به على القدم الرسوم
رياض بالشقائق مونقات تكنف نبتها نور عيــــــــــــــــم¹⁹

وعموما فقد كانت البيئة العباسي في قمة الجمال و الروعة بحيث تتسم بالقصور العالية و الجميلة ومظاهر الحضارة و الرقي و المناظر الطبيعية الخلابة سواء ما كانت من الطبيعة أو من صنع البشر. مما جعل الشاعر العباسي يتعلق بها ويحبها و يجعل لها مكانا في شعره. فراح الشاعر يعدد هذه المظاهر و يصبغها بوجدانه و مشاعره فكان أن أخرجوا لنا قصائد في قمة الجمال الفني.

2— الشاعر الأندلسي و المدينة:

لقد تناول الشاعر الأندلسي هو الآخر في شعره موضوع المدينة وكانت من صميم الموضوعات التي لها علاقة بما يحيط بالشاعر؛ إذ أنه ارتبط و تعلق بها وخلدها في شعره . كيف لا وقد عرف عن بلاد الأندلس أنها كانت في قمة الجمال. و في هذا قال أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل و أنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار²⁰

والأكثر من ذلك أن الشاعر الأندلسي لم يكتف بوصف المدن الأندلسية، بل أنه تعلق بها وأصبحت جزءا من وجدانه، يتفاعل معها ويألم لما يلحق بها؛ خاصة وأن الأندلس عرفت العديد من الحروب التي خربت المدن و دمرتها بعدما كانت قمة في الجمال وكانت أهلة بالناس والحركة تدب في أرجائها.

فقد كانت الأندلس في فترة من الزمن في حالة حروب وطغيان الغزو الصليبي . فقال ابن الدباغ الاشبيلي:

وقائلة أراك تطيل فـــــــــــــــــــــرا كأنك وقفت على الحساب
فقلت لها أفكر في عـــــــــــــــــــــاب غدا سببا لمعركة العقـــــــــــــــــــــاب
فما في أرض أندلس مـــــــــــــــــــــام وقد دخل البلا من كل باب²¹

وهذا ابن الآبار يندب بلنسية يقول:

وفي بلنسية و قرطبة ما يتزف النفس أو ما يتزف النفسا
مدائن حلها الإشراف مبتسما جذلان وارتحل الإيمان مبتسما²²

فقد شهدت الأندلس حملة تنصير شرسة شنها الصليبيون تجاه الإسلام و أهله، هذا ما جعل شعراء الأندلس يألمون لذلك.

وقد كانت المدينة حاضرة بقوة في شعر الأندلسيين الذين كانوا في الغربة؛ حيث كتبوا عن الحنين إليها، مما يبين مدى تعلق الشاعر الأندلسي ببيئته. "الحنين للوطن و الأهل والأحباب من رقة القلب و علامات الرشد لما فيه من دلائل على الكرم الأصل وتمام العقل."²³

وقيل كذلك: "ليس الإنسان أقنع بشيء من وطنه لأنه يتبرم بكل شيء رديء و يتذمم من كل شيء كريه، إلا من وطنه و إن كان رديء التربة، كريه الغذاء، ولولا حب الناس للأوطان، لخرب أحاباث الأرض."²⁴

و لقد عرف العربي حب الوطن و الحنين إليه من أقدم الأزمان فذكر المنازل و الديار . فالأرض قطعة من الإنسان لا يستطيع نسيانها من حل أو رحل . وهل يستطيع الإنسان أن ينسى نفسه؟.

فهذا الشاعر أبو الحسن علي بن سعيد العنسي يتذكر الأندلس عندما ذهب إلى مصر يقول:

هذه مصر فأين المغرب ؟ مذ نأى عني فعيبي تسكب
فارقته النفس جهلاً ، إنما يعرف الشيء إذ ما يذهب
أين حمص؟ أين أيامي بها؟ بعدها لم ألق شيئاً يعجب
كم تقضى لي بها من لذة حيث للنهر خريبر مطرب
وحمام الأيك تشدو حولنا والمثاني في ذراها تصخب
أي عيش قد قطعناه بها ذكره من كل نعمى أطيّب؟²⁵

وهذا عبد الرحمن الداخل يقول في حنينه إلى المشرق:

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعض
إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي و مالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالبعد علينا فعسى باقتربنا سوف يقضي

وما يميز الشعر الأندلسي المتعلق بالمدينة كموضوع هو ظهور ما يعرف برثاء المدن حيث راح الشاعر الأندلسي ييكي على المدن مثلما كان ييكي الشاعر الجاهلي على الأطلال. وفي هذا الشأن يقول ابن خفاجة الأندلسي في رثاء مدينة بلنسية التي سقطت في أيدي الأعداء سنة 488هـ ، بعد حصار دام عشرين يوماً :

عائت بساحتك العدى يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر طار اعتبار فيك و استعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها و تمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها "لا أنت أنت ولا الديار ديار"²⁶

وهذا ابن لبانة يرثي مملكة بني عباد و مملكتهم في قصيدة طويلة نذكر منها :

تبكي السماء بدمع رائح غاد على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
يا ضيف أفقر بيت المكرمات فخذ في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين وجف الزرع بالوادي²⁷

وتعتبر نونية الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي من أروع ما قيل في رثاء المدن وأصدق ما يعبر عن مدى تعلق الشاعر الأندلسي ببيئته يقول:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء لـه هوى له أحد و انهد ثهلان
 أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار و بلدان
 فاسأل بلنسية: ما شأن مرسية؟ وأين شاطبة أم أين جيان؟
 وأين قرطبة دار العلوم، فكـم من عالم قد سما فيها له شان؟
 وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض و ملآن؟
 قواعد كن أركان البلاد فمـ عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟²⁸

وعموما فقد كانت المدينة في نظر الشاعر الأندلسي الفضاء الذي رسمت فيه كل محطات حياته. لذلك تعلق بها وأحبها وتفاعل معها بكل وجدانه غير أن خير جميل رده إليها هو أنه خلدها في أشعاره.

II- المدينة في الشعر العربي الحديث والمعاصر:

1- الشاعر العربي الحديث و المعاصر والمدينة:

إن من أبرز ما يميز الشعر العربي الحديث هو غلبة بعض الموضوعات على هذا الشعر؛ وتعتبر المدينة من أبرز المواضيع التي لا نجد شاعرا إلا وقد تطرق إلى هذا الأمر. ولعل السبب في ذلك راجع إلى طبيعة الشعراء و تعلقهم بالوجداني بالمحيط، ثم أن تغلغل الشاعر العربي في روح الحضارة أدى به إلى التطرق لهذا الموضوع باعتباره الفضاء الذي تتجسد فيه كل مظاهر الحياة.

غير أن المدينة كانت للعديد من الشعراء بمثابة العالم الغريب الذي وجد نفسه تائها فيه. وخاصة لدى الشعراء الذين عاشوا في الريف ثم انتقلوا للمدينة، فكان أن وقعوا في صراع بين عالمين مختلفين تماما؛ بين عالم الريف وعالم المدينة. فكانت الثنائية التي شكلت محور الصراع الرئيسي الذي دارت حوله جل القصائد التي تناولت موضوع المدينة.

"لكن حلم القروي الذي كان يحمله إلى عالم المدينة كثيرا ما يتحول إلى خيبة أمل يصاب بها حين يستقر بها، فيعاني حالات جديدة من الإحباط والتمزق والشعور بالاغتراب في وسط لا يتحقق فيه ذلك الانسجام بين مظاهره وبين بنية الفرد النفسية وعواطفه التي نشأت في بيئة مغايرة تماما... واغتراب الإنسان في المجتمع بعدما طغت النزعة الفردية، وشعر كل فرد بأن وجوده لا يتحقق ضمن إطار جماعي كما كان معمولا به في الجماعات البدائية الأولى.. فكلما زاد التقدم العلمي و التقني كلما زادت الهوة بين الأفراد وتقلصت حدود العلاقات الاجتماعية بين الناس"²⁹.

غير أن الصراع الذي كان قائما بين الشاعر والمدينة هو صراع نابع من وجدانه، كونه لم يتأقلم مع المدينة نفسيا، هذه البيئة الجديدة التي تختلف كل الاختلاف عن البيئة التي تربى فيها وفي هذا الصدد يقول إحسان عباس: "وقد كان من المصادفة أن يكون عدد من الشعراء المعاصرين ريفي النشأة ثم هاجروا للمدن فالصدام بينهم وبين المدينة لا يعني مقتا للحضارة ووسائلها؛ وإنما هو تعبير عن عدم الألفة بينه وبين البيئة الجديدة لأسباب عديدة (...)" فأول ما يحس به الريفي تجاه المدينة هو النفور من الضجيج الكثير والازدحام والتدافع واضطراره إلى تغيير طريقته

في المشي المتباطئ واستحداث سرعة لم يألّفها من قبل في الحركة العامة... ولعل أشد ما يصدمه أن كل شيء يباع فتأخذه الحسرة على ما فقدته من فضائل الريف وأخلاقياته وعاداته"³⁰.

إن النفور من المدينة و الحنين إلى الريف ممتزج مع الحنين إلى الأم وإلى الطفولة .

" نرح الشاعر الريفي إلى المدينة ويحمل قريته دائما بين جوانحه و يجتاحه الحنين إلى قريته من حين إلى آخر"³¹.

و من شدة تعلق الشاعر بالريف(القرية) فقد خلدها في شعره، ودائما من خلال الثنائية القائمة بين الريف و المدينة .وهنا يقول عبد المعطي حجازي عن القرية:

أمامنا لا سقف ولا جدار

أمامنا المدى مخضوضر في المغرب الشتوي صافي الاخضرار

أين ازدهام الناس؟

أين اصطناع الزرع في آنية النحاس؟

هنا المدى لا يعرف الحراس

هنا أنا حر .هنا الطيور تستطيع أن تطير.

هنا النبات لا يزال أخضر الرداء

ويقول كذلك :

أيها الحقول يا نقية الألوان

يا بيدر الطائر يا مرعى البهيم

لو أنني نزلتك الآن فتحت لي الذراع

لو أنني مشيت ما وجدت من يقول:قف"³².

وهنا راح الشاعر يعدد مظاهر الريف من خلال تلك الفروق التي كانت بين حياة المدينة و عالم القرية .وفي مقابل ذلك كان ناقما على مظاهر الحياة في المدينة.

وفي هذا الإطار دائما يقول بلند الحيدري:

لا لن أعود

لمن أعود وقريتي أمست مدينة؟"³³.

أما السياب فلم ينسجم مع بغداد لأنها عجزت أن تمحو صورة جيكور أو تطمسها في نفسه ؛هذه القرية الصغيرة التي احتضنت مولد الشاعر ونشأته الأولى وامتزجت في وجدانه بكل معاني البراءة و النقاء .ولهذا أصبحت جيكور لدى السياب رمزا للصفاء و الطهر و الحرية و السلام. حتى حين رجع إلى جيكور وجدها قد تغيرت لم يستطع أن يحب بغداد أو أن يأنس إلى بيتها وظل يحلم لا بد أن تبعث من خلال ذاته .فخلدها في شعره وذلك من خلال قصيدته : "جيكور والمدينة". هذه القصيدة التي بينت ذلك النفور الذي يمارسه الشاعر تجاه المدينة.

وحديث السياب عن دروب بغداد هو الذي جعل هذه اللفظة لدى معظم الشعراء من بعد تحدد معنى الضياع. يقول:

وتلتف حولي دروب المدينة

حبالاً من طين

بمضغن قلبي

ويحرقن جيکور في قاع روعي

ويزرعن فيها رماد الضغينة³⁴ (من ديوان أنشودة المطر)

أما محمود درويش شاعر القضية الفلسطينية فيعتبر من أبرز الشعراء الذين تعلقوا بالمدينة وخلدوها في أشعارهم وبالخصوص المدن الفلسطينية حيث نقل كل ما تعانيه المدن الفلسطينية الموضوعة تحت الاستعمار اليهودي. فإذا قمنا بنظرة على عناوين قصائد الشاعر، رأينا أن الشاعر التفت إلى المدينة مرارا وخصها بالذكر وجعلها عنواناً لقصيدته، ويمكن هنا التمثيل على ذلك: تحت الشبايبك العتيقة: إلى مدينة القدس وأحواها - قاع المدينة - غريب في مدينة بعيدة - عائد إلى يافا - المدينة المحتلة - حوار مع مدينة - طريق دمشق - تأملات سريعة في مدينة قديمة وجميلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط - قصيدة بيروت.... وغيرها من المدن التي تنوعت بين المدن الفلسطينية والعربية والغربية. ومن أبرز المدن التي كانت حاضرة في شعره نجد كلا من القدس و غزة يقول فيهما: "وما القدس والمدن الضائعة/ سوى ناقة تمتطيها البدواة/ إلى السلطة الجائعة/ وما القدس والمدن الضائعة/ سوى منبر للخطابة/ ومستودع للكآبة/ وما القدس إلا زجاجة خمر وصندوق تبغ.../ ولكنها وطني". ويقول في غزة:

"وغزة لا تصلي حين تشتعل الجراح على مآذنها/ وينتقل الصباح إلى موانئها، ويكتمل الردى فيها/ أتيت/ أتيت/ قلبي صالح للشرب/ سيروا في شوارع ساعدي تصلوا/ وغزة لا تتبع البرتقال لأنه دمها المقلب....".³⁵ وهذا البياتي يقول في المدينة:

وعندما تعرت المدينة

رأيت في في عيونها الحزينة

مبازل الساسة و اللصوص والبياطق

رأيت في عيونها المشانق

تنصب و السجون و المحارق

و الحزن و الضياع و الدخان

رأيت في عيونها الإنسان

عن عظمة عن قمر يموت فوق جثث المنازل.³⁶

ويذهب عبد المعطي حجازي كذلك في إطار حديثه عن المدينة إلى الحديث عن الوجه المادي للمدينة على غرار العمارات الشاهقة و السيارات والعدد الهائل من الناس والوسائل والآليات. والأكثر من ذلك ذهب إلى الحديث عن سلطة الوقت الذي يسيطر على حركة الناس و تحركاتهم. يقول في هذا الأمر: رسوت في مدينة من الزجاج و الحجر

الصيف فيها خالد ما بعده فصول
 بحثت فيها عن حديقة فلم أجد لها أثر
 وأهلها تحت اللهب الغبار صامتون
 و دائما في سفر

لو كلموك يسألون: كم تكون ساعتك؟؟³⁷ (رسالة إلى مدينة مجهولة)

والأكثر من ذلك يذهب محمد إبراهيم أبو سنة إلى الحديث عن سلطة المدينة التي تتحكم حتى في حركة الناس؛ حيث يلتقط لنا صورة عن تحكم الآلية في حياة الناس من خلال إشارات المرور التي يطيع الناس أوامرها. يقول:

إشارة حمراء: قف

إشارة خضراء: من هنا انصرف³⁸ . (من قصيدة نرجس و المدينة)

وهنا الشاعر يذهب إلى أبعد من ذلك من خلال البعد الآخر لهذه الإشارات التي ترمز إلى فقدان الشاعر لحرية داخل المدينة، و اعتبار أن المدينة تسلبه أحلامه و تضغط عليه لأجل الخضوع لكل أوامرها فهي في نظره الأمر و الناهي .

كما أنه يتحدث عن ضياعه في المدينة، ويصف لنا مدى معاناته داخل هذا السجن مما ألبسه ثوب الهموم و الأكثر من ذلك يعمم الأمر على جميع من يسكن فيها. يقول:

بالأمس يا حبيبي .. خرجت للطريق

لأقرأ الهموم في العيون

همومهم أولئك الذين يعبرون

في شارع المدينة الحزين³⁹ .

وقد أخذت المدينة في شعر هؤلاء الشعراء عدة أبعاد. ولعل البعد الاجتماعي (الإنساني) هو الأكثر وقوعاً في مضامين قصائدهم نظراً لما له من الصلة الكثير بالجانب الوجداني. والأكثر من ذلك أن الإنسان لا يتحقق وجوده إلا من خلال إطار الجماعة وبين أهله والآخرين.

يقول البياتي في ما يتعلق بالتواصل:

و ذات ليلة أتى الشتاء / و جرد الأشجار من ثيابها / و أرسل الرياح / تنوح في الطريق / و فجأة تفرق الصحاب / لكل واحد طريق / و أغلقوا الأبواب / الريح تلتوي و يسقط السحاب / و فوق كل مدفأة تمددت أنامل الجليد.⁴⁰
 وهذا كله من خلال ثنائية الأنا و الآخر؛ فالناس في المدينة متفرون مغلقون على أنفسهم غير متواصلين. و طموح الشاعر في التواصل و اهتمام كل واحد منهم بنفسه. فلكل همومه. و تركوا الشاعر وحده. وهنا يواصل و يقول:

لو يعلمون يا مدينتي

الدفع ليس مدفأة

الدفء ليس في الغطاء

الدفء في مودة اللقاء⁴¹

وفي هذا الصدد دائما يقول عبد المعطي حجازي:

الناس حولي ساهمون

لا يعرفون بعضهم... هذا الكتيب

لعله مثلي غريب

أليس يعرف الكلام؟

يقول لي... حتى... سلام⁴²!

فلا أحد يلقي السلام على الآخر والشاعر يقول هذا من قبيل أن القرية لا تعرف مثل هذه السلوكيات فالناس يلقون السلام على بعضهم البعض. ويهتمون ببعضهم فيفرحون لفرح أحدهم و يحزنون لحزنه. فلسنا هنا في القرية ولكن نحن في المدينة. حيث الكل مضيع وغريب.

وهذا صلاح عبد الصبور يرى أنه لا يموت مثل الآخرين وينال حقه من البكاء عليه والتعزية و المواساة، وخوفه من أن لا يحضر الناس جنازته بسبب عدم اهتمام الناس به .

... وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلا

في زحمة المدينة المنهمرة

أموت لا يعرفني أحد

وقد يقال بين صحي، في مجامع المسامرة

مجلسه كان هنا، وقد عبر

يرحمه الله⁴³!

وعموما تعبر نفسية الشعراء في حالة تفتقد للبعد الاجتماعي و التواصل ؛ وذلك من خلال عقدتهم للمقارنة بين عالم المدينة و عالم الريف.

2 — الشاعر الجزائري و المدينة:

لم يكن الشاعر الجزائري بمنأى عن غيره من الشعراء العرب الذين تناولوا موضوع المدينة في أشعارهم وبخاصة في العصر الحديث. حيث أنه هو الآخر تعلق بالمدينة وأحبها وجسدها بكل جوانحه في شعره.

ومن منطلق أن العديد من الشعراء الجزائريين تربوا في البادية فقد تعلقوا بها وخلدوها في أشعارهم ودافعوا عنها بكل إخلاص. وتعتبر قصيدة الأمير عبد القادر التي كتبها ردا عن الذي لامة في عيشة البادية مفضلا بذلك حياة المدينة خير دليل على ذلك يقول:

يا عاذرا لا مرئ قد هام في الحضـر وعاذلا لحب البدو و القفـر

لا تذمن بيوتا خف محملها— و تمدحن بيوت الطين و الحجر

تستشقن نسима طاب متشقهـا— يزيد في الروح لم يمرر على قـدر

نباكر الصيد أحيانا فنبغته فالصيد منا مدى الأوقات في ذعر
 ما في البداوة من عيب تدم به إلا المروءة والإحسان بالبدر⁴⁴
 وفي مقابل ذلك فقد تعلق الشاعر الجزائري بالمدينة الجزائرية وبالخصوص المدن التي كانت رمزا للحضارة والعلم،
 وهذا مفدي زكريا يقول في مدينة قسنطينة بمناسبة تدشين دار ابن باديس:

وانزل بدارات سرتا مطرقا أدبا فبين أضلعها أبؤها الصيد
 وامش الهوينا ففي أحشائها أمم وفي جوانحها أسد معاميد
 دم الصحابة معجون بتربتها قد خلدهما على الدنيا الأسانيد⁴⁵
 ويقول محمد العيد آل خليفة في مدينة قسنطينة متغنيا بجمالها:

تيهي بحسبك يا قسنطينة وافخري وعلى العواصم فاسحي الأذيلا
 بلد الهواء دعوك أم بلد الهوى أن أراك لذاوذاك مجالا
 قد ضمك الطود الأشم لصدرة وتعطف الوادي عليك ومالا
 وعلت جسورك في الهواء فأوثقت ما بين كلتا عدوتيك وطال⁴⁶

فقد كانت قسنطينة مركزا للعلم والهدى ولحركة الإصلاح وجمعية العلماء المسلمين ومركزا للتخطيط والمقاومة
 ومهدا للآباء والأجداد.

ويقول كذلك مفدي زكريا وهو يتغنى بجمال الجزائر:
 جزائر يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات
 ويا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسما
 جزائر يا بدعة الفاطر ويا روعة الصانع القادر⁴⁷
 أما مدينة بجاية فقد كان لها هي الأخرى نصيب من الذكر في قصائد شعرائنا؛ فهذا عبد الكريم عقون يتغنى بها
 يقول:

بجاية يا نبع العلا والعظم ومثوى جدودي هداة الأمم
 أتيتك تحذوني الذكريات لماض مجيد تحدى العدم
 مآثر شاحصة للعيان مدى الدهر تبقى ولا تنعدم
 يعانقها من رقيق الغمام وشاح موشى به تلتثم
 توسدت السفح في عزة يطوقها كل طود أشم⁴⁸

وهذا أبو اليقظان يتغنى بمدينة غرداية وما فيها من مظاهر العز والكرامة والدين يقول:

أنت ميزاب بلادي أنت حزن الاستقامة
 كل من يحتك يوما بك حاقتة الندامة
 أنت للدين ملاذ ومنار وعلامة

أنت ميزاب بلادي أنت شاربات الكرامة
وشعار العز و الجند وعنوان الشهامة⁴⁹

ويقول محمد العيد آل خليفة في مدينة تيمقاد :

وقفت على تيمقاد وقفة حائل وطففت بها مسترشداً بالدلائل
أردد في آثارها طرف عبرة لعلني منها أن أعود بطائيل⁵⁰

ونظرا للظروف التي عاشتها الجزائر تحت الاحتلال جعلت من الشاعر الجزائري يتناول كثيرا هذا الموضوع في قصائده باعتبار أن المدينة تمثل له الوطن و الانتماء ووجوده ومهدا للطفولة ومرتع الأجداد والأهل، وفي هذا الأمر يقول إبراهيم الرماني: "ولأن المدينة يحكمها الغزاة الأجانب الذين اغتصبوا الأرض و الهوية و سرقوا الذاكرة والأحلام وأرهبوا الأهالي بكل ألوان القهر و الموت والمسح و التغريب واستعانوا بذلك بالجيش و المؤسسات التي اتخذت المدن مراكز لسلطتها ومن ثم غدت هذه المدن مكانا للآخر ولكل ما هو ضدي و نقيض للأنا الوطنية و الحضرية"⁵¹

فكان وقوع الجزائر تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي وقيام هذا الأخير باحتلال المدن الجزائرية وطرده أهلها وتشديد الخناق عليهم وسلب حريتهم فأصبح يتصرف فيها كما يشاء. وهنا وقف الشاعر الجزائري سائلا عن الحالة التي آلت إليها المدينة الجزائرية عبر الوطن وبخاصة العاصمة:
في هذا الأمر يقول صالح خباشة عما وقع للعاصمة:

أعاصمة الجزائر خبرينا عن القباء و المستعمرينا
وماذا بيتوا للحي ليلا فأصبح مدفنا للساكيننا
ويقول صالح خرفي في مدينة القصبة:

على الأحرار أعلننا حدادا وأرسل دمعك الغالي مدادا
فحي القصبة التهمته نار فبات المرء و المأوى رمادا⁵².

أما أبو القاسم سعد الله فهو الآخر كانت المدينة عنده رمزا للألم والمعاناة بسبب ما أحدثه الاستعمار الفرنسي يقول:

ذات يوم كنت أمشي في أحضان المدينة
فإذا بالشعب أكوام و أشلاء مهيبة
وزئير الموجه الحمراء يجتاح السكينة
وبقايا جثث خرساء و الدنيا الحزينة⁵³

وإلى جانب المدينة الجزائرية فقد كانت المدينة العربية هي الأخرى حاضرة في قصائد شعرائنا :
يقول مفدي زكريا عن العديد من المدن العربية:

بلاد بها من فاس في القلب شعلة وفيها أحبابي و صجلي و أخلائي
مربع مراكش خط رسمها من الملاء الأعلى ملائك الرحمان

ويا ذرى الشام هل هاجت مواجدنا فبارك الشعر في ناديك لقيانا
ويا دمشق هل ابتلت جوانحننا بعد التناثي الذي قد كانا أضنانا
بيروت ما أنت؟ أفي محشـر شادت مبانيك يد الصانع
أتونس الخضرا تجر ذيولها مرنحة الأعطاف مرتعا خصب⁵⁴

ويقول عبد الكريم عقون عن الحال التي آلت إليه مدينة القدس:

أيها الشعب ول وجهك نحو الشـ سرق وانفض لنصرة الإسلام
أنقذ القدس و احمها من دخیل فهي في غمرة الخطوب الجسام
كيف ترضى الهوان و الخسف و الإسلام يأبى خفض إلهام⁵⁵.

إذ أننا لا نجد شاعرا إلا وقد تناول هذا الموضوع. وما نؤكد أنه هو مدى تعلق الشاعر الجزائري بالمدينة سواء كان من مدن الجزائر أو المدن العربية.

ومما سبق ذكره فيما يتعلق بمحدثنا عن المدينة في الشعر العربي الحديث كانت المدينة في جل ما وردت تتميز بطابعها المادي و الواقعي الذي يتنوع من بيئة لأخرى، بالإضافة إلى رموزها التي تنوعت بين الضياع و الغربة في إطار وجداني برع الشعراء في تجسيده في أشعارهم. غير أن هناك طابع آخر للمدينة جسد كذلك في الشعر العربي الحديث والمعاصر يتمثل في المدينة الخيالية والمثالية التي يبنها الشاعر في أشعاره، بحيث يرسم ملامحها ويث في أرجائها كل ما يشكل راحة له و يؤسس لمدينة مثالية تخالف تماما المدينة التي يحيا فيها الشاعر؛ مدينة من نسج خيال الشاعر مبنية وفق نظرتة الذاتية يعمها السلام والمحبة يغلب عليها البياض والنور، الاستقرار والسكينة والهدوء، المحبة و التواصل لا يوجد فيها الشر ولا كل المظاهر الخلقية السلبية، إنها مدينة مثالية بكل معنى الكلمة ويعتبر السبب الذي يقف وراء ذلك هو نفور الشاعر من مدينته الواقعية وبكل ما تحمله من ألم في وجدان الشاعر. هذه المدينة تعرف باليوتوبيا هذه الأخيرة هي كلمة إغريقية معناها اللامكان و المقصود بها المدينة الفاضلة. وقد كان أفلاطون قد أرسى معالم هذه المدينة في جمهوريته، و كذلك للفراي كتاب بعنوان آراء أهل المدينة الفاضلة. فالنفور من المدينة و معاناتها من طرف الشعراء العرب دفعهم إلى البحث عن البدائل و التطلع و الحلم بمدن فاضلة مثالية⁵⁶.

يقول صلاح عبد الصبور:

ولا تشغلي أننا ذاهبان إلى قرية لم يطأها البشر
لنحيا على بقلها لا الحياة تظن علينا و لا النبع جف
ونصنع كوخا حواليه تل من الورد باحته و السجف⁵⁷

ويقول الشاعر العراقي سعدي يوسف:

تلك المدينة يا حبيبة و المنازل بانتظاري
تتوشح الياقوت ثوبا و الزمرد و الدراري
تلك النوافذ تستفيسق مزركشات باخضرار

الورد يهمس فوقها والطيب يغمر كل دار⁵⁸

يقول أمل دنقل:

وأرحل في مدن لم أزرها

شوارعها فضة

وبناياتها من خيوط الأشعة

وعموما فالطابع الذي ميز هذه المدينة هو البعد الإنساني رمز الحب و المحبة والنور والصفاء.

خاتمة:

وما نؤكد في الأخير أن المدينة كموضوع لها من العراقة ما جعلها موضوعا ممتدا في تاريخ الأدب العربي وذلك انطلاقا من العصر الجاهلي مروراً بالعصور الأدبية التي تلتها الواحدة تلوى الأخرى. فلا نكاد نجد شاعرا عربيا إلا وقد كان موضوع حاضرا في قصائده.

كما اتضح لنا مدى تعلق الشاعر العربي بالمدينة و تفاعله معها بكل وجدانه ومشاعره. فكان أن خرجت لنا قصائد رائعة في قمة الجودة الفنية و الإبداعية. غير أن طبيعة هذا التفاعل تختلف من شاعر إلى آخر.

و وجدنا كذلك أن المدينة انطلاقا من مفهومها المادي الذي يتمثل في الجانب العمراني والبنية التي تشكل ملامحها قد أخذت أبعادا عدة من منظور الشعراء فهناك العديد من الشعراء كانوا يعتبرون المدينة رمزا للضياع و الألم و الغربة و التشتت ولعل السبب راجع في ذلك إلى أن هؤلاء الشعراء لم يتكيفوا حياة المدينة لأن نشأتهم كانت ريفية و بالتالي كان هناك نوع من الصراع الداخلي لدى الشاعر العربي بين ثنائية المدينة رمز الحضارة والعمران و الريف رمز الهدوء و السكينة. غير أنه في المقابل هناك العديد من الشعراء أحبوا المدينة وتعايشوا مع مظاهرها لأن ظروف الحياة الصعبة التي كانوا يعيشونها في الريف خاصة إذا كانت المنطقة نائية جدا لا تتوفر فيها أدنى ظروف المعيشة الكريمة مما أحب هؤلاء المدينة. وكان هذا الحب يزداد نوعا ما مع مرور الأيام و الأزمان.

كما نشير كذلك أن المدينة كمصطلح قد أخذت أشكالا مختلفة لكنها تشترك في مفهوم واحد هو الانتماء فنجد: القرية، البادية، الريف، الوطن... إلى جانب المدينة. حتى أن الشاعر الجاهلي لم يكن يعرف المدينة بل كانت حياة الجاهليين تتميز بالبداوة وحياة الترحال من مكان إلى آخر غير أن الشاعر الجاهلي نجده نعلق بالمكان وإن كان عبارة عن أطلال .

كما أننا أدركنا أن الشاعر العربي ومن خلال وجدانه قد تنوعت نظراته إلى المدينة بين الحب والكراهة والإعجاب. وبخاصة في العصر الحديث و المعاصر.

قائمة المصادر و المراجع

- ¹ محمد ابراهيم حور، الحنين للوطن في الشعر العربي، (د.ن)، (د.م)، (د.ت)، ص13.
- ² المرجع نفسه، ص25، نقلا عن أخبار مكة، ص195.
- ³ سورة النساء: 66.
- ⁴ عبد الرحمن منيف، الكاتب و المنفى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، 2001، ص8.
- ⁵ محمد ابراهيم حور، الحنين للوطن في الشعر العربي، ص39.
- ⁶ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجا (1925 — 1962)، دار هومة، الجزائر، 2001، ص19.
- ⁷ حسين نصار، معاجم على الموضوعات، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1985، ص77.
- ⁸ بهجت عبد الغفور الحديثي، دراسات نقدية في الشعر العربي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004، ص42.
- ⁹ المرجع نفسه، ص43.
- ¹⁰ بهجت عبد الغفور الحديثي، دراسات نقدية في الشعر العربي، ص43.
- ¹¹ عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال، د.ن، دمشق، 1968، ص115.
- ¹² أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص52.
- ¹³ محمد إبراهيم حور، الحنين للوطن في الشعر العربي، ص75.
- ¹⁴ إبراهيم القهوجي، الشاعر العربي و المدينة، www.google.ae.
- ¹⁵ حسين عبد الحميد، دراسة في علم الاجتماع الحضري، ط5، المكتب الجامعي، الحديث، الإسكندرية، 1989، ص59.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص63.
- ¹⁷ أمين أبو ليل، العصر العباسي الثاني، مؤسسة الوراق، عمان، 2007، ص91.
- ¹⁸ المرجع السابق، ص93.
- ¹⁹ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجا (1925 — 1962)، ص23.
- ²⁰ عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص154.
- ²¹ محمد زكريا عناني، تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1999، ص27.
- ²² إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجا (1925 — 1962)، ص31.
- ²³ عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت، ص269.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص270.
- ²⁵ عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص274.
- ²⁶ المرجع السابق، ص323.
- ²⁷ عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص325.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص326.
- ²⁹ قرطي خليفة، المدينة في الرواية الجزائرية العربية (مذكرة ماجستير)، جامعة الجزائر، 1995، ص119.
- ³⁰ إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص90.
- ³¹ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص32.
- ³² المرجع السابق، ص39.

- ³³ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص94.
- ³⁴ محمد محمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر: بياها ومظاهرها، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1996، ص273.
- ³⁵ عادل الأسطة، مدخل لقراءة موضوع المدينة في شعر درويش، 2007، www.google.ae.
- ³⁶ إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص106.
- ³⁷ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص22.
- ³⁸ علي عشري زايد، قراءات في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998، ص332.
- ³⁹ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص25.
- ⁴⁰ المرجع نفسه، ص174.
- ⁴¹ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص185.
- ⁴² علي عشري زايد، قراءات في الشعر العربي المعاصر، ص332.
- ⁴³ المرجع السابق، ص337.
- ⁴⁴ عمر بن قينة، الأدب العربي الحديث، دار الأمة، الجزائر، 1999، ص69.
- ⁴⁵ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجاً (1925 – 1962)، ص98.
- ⁴⁶ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجاً (1925 – 1962)، ص101.
- ⁴⁷ المرجع نفسه، ص172.
- ⁴⁸ المرجع نفسه، ص102.
- ⁴⁹ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجاً (1925 – 1962)، ص107.
- ⁵⁰ المرجع نفسه، ص188.
- ⁵¹ المرجع السابق، ص96.
- ⁵² إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجاً (1925 – 1962)، ص123.
- ⁵³ المرجع نفسه، ص126.
- ⁵⁴ إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي: الجزائر نموذجاً، ص230.
- ⁵⁵ المرجع نفسه، ص236.
- ⁵⁶ مختار علي أبو غالي، المدينة في الشعر العربي المعاصر، ص263.
- ⁵⁷ المرجع نفسه، ص266.
- ⁵⁸ المرجع نفسه، ص272.